خطاب الأصالة بين الأيديولوجيا والفكر

ناصر الحارثي

موضوع خطاب الأصالة أحد أهم المواضيع التي تشغل مفكري العالم العربي والإسلامي، وذلك للتأثير الملحوظ لهذا الخطاب على الشارع العربي، وقد تحدث عبد الإله بلقزيز في مقاله بمجلة التسامح «في نقد خطاب الأصالة وعوائق التغيير» شارحا التسلسل الزمني للخطاب، وأهم محفزاته والتي ساعدت على صعود خطاب الأصالة وكذلك أهم التوجهات المنطوية تحت هذا الخطاب، وأهم التحديات والإشكاليات المقترنة به، وكذلك مآلاته سواء في الواقع أو في المستقبل، مقدما تشخيصًا مهمًا من عدة زوايا لهذا الخطاب الأيدولوجي.

إنّ الدعوة للرجوع إلى الموروث والتمسّك بالأصالة، والترنم بأمجاد الأمّة هو في حقيقته خطاب انهزامي يحمل في طيّاته الكثير من تراكمات الفشل والانكسار وعدم القدرة على اللحاق بقطار الواقع ومجاراة التغيير، ويرتكز هذا الخطاب في الأمم التي تحمل رصيدا ضخما من الموروث الحضاري لذا يكون هذا الموروث هو الملجأ وهو المرجع عند الشعور بالضعف فيكون الصدفة التي ينكفئ فيها في مواجهة حداثة عارمة تعصف به وأبجدياته التي عاش عليها، هذا الانكفاء لا يحدث في الأمم التي لا تحمل زخما حضاريا كبيرا في ذاكرتها بل إنها تكون أكثر مرونة لاستقبال التغيير وكثيرا ما تلجأ للنسيان والتماهي عن ماضيها، أما الأمم التي تحمل ماضيا كبيرا كالأمة العربية فهي تعيش أشبه بالحالة المرضية ، متعللة بماضيها معتلة بها، فيكون الأصالة التي تركن إليه معتقدة أنه الدواء ما هو إلا داء يزيد من ضنك عيشها، وكأن الأصالة منبر من لا منبر له في عالم التغيير والحداثة، وحصن لمواجهة كل جديد ونبذه ومهاجمته بأسلحة الخطاب الديني كالبدعة في استنقاص الابتداع والتغيير وشرذمة الحداثة، وأحيانا باستدعاء أمجاد الماضي وأصالته، وفي أحيان كثيرة باستحقار الحضارة المدنية الحديثة وازدرائها.

بدأ التسلسل الزمني لخطاب الأصالة منذ القرن التاسع العشر، حينما وجد العرب والمسلمون أنفسهم أمام حضارة غربية حداثية زاحفة تفوقهم بل تجتاحهم وبدأ الاستعمار الغربي للعالم العربي والإسلامي، وكان من الممكن لخطاب الأصالة أن ينطوي على نفسه ويركن للماضي بدل مواجهة الحاضر ولكن لحسن الحظ أنّ خطاب الأصالة حاول دراسة أسباب نهوض الحضارة الغربية وتخلف الحضارة العربية والإسلامية، وخلص لنتائج تبدأ من الحاضر وتنطلق للمستقبل، كتغييب العقل العربي وغياب النقد وجبروت السلطة والتمدن والدستور والحرية والعدالة والبناء، وهذا أمر إيجابي ولكن التغيرات الحاصلة من خلال الاستعمار وسقوط الخلافة وانهيار الدولة العثمانية، جعل العديد من دعاة الإصلاح في موضع التباس من المدنية والحداثة وتراجع الكثير من الأفكار وزاد التوجس من الغرب والحداثة ونقدها حتى من أبرز المنادين للإصلاح كمحمد رشيد رضا ومحمد عبد الوهاب، هذا التراجع الملموس في الخطاب الإصلاحي المرتكز على الأصالة قد نجد ما يبرر له ولكن حتما لا ندافع عنه.

انتقل الخطاب الإصلاحي من بعد موقف الريبة وما سببه الاستعمار من ازدياد التوجس من الحضارة الغربية ومدى أطماعها، إلى خطاب نهضوي وآخر إحيائي، وهو أمر في الحقيقة ملفت للغاية ويظهر نوعا من التراجع حينا والدافعية في أحيان أخرى، ارتكز الخطاب الإحيائي إلى العودة إلى التاريخ واستحضار أمجاده واعتباره نموذجا يحتذى به وقالبا يهدي إلى سبيل الرشاد دون النظر لمعطيات ذلك الزمن وما هي إشكالياته وإيجابياته، لذا نجد أنّ هذا الخطاب يرمي بآلة النقد بعيداً ويهمش العقل والتفكير ويخلق أيديولوجيا بعيدة كل البعد عن معطيات التفكير وأدواتـه، وهو أمر يبعث على الأسى والجمود والتخلف ، ولكنه لطالما استند لسلطة النص في تثبيت ركائزه والانتصار لدعواته، وأما الخطاب النهضوي فكان يدعو للتصالح بين الإسلام والعصر، والاستفادة من معطيات المدنية والحداثة وآخر ما توصل إليه العصر من علوم ومعارف وقد قاد هذا الخطاب عدد من المفكرين والذين عملوا بجهد لردم الهوة بين الحياة المعاصرة والدين، ولكن باعتقادي أنّ هذا التيّار الفكري بتنوّع مدارسه وتوجهاته لا يزال يواجه عقبات وتحديات من الداخل والخارج، فأمّا من الداخل فإنّه لا يملك توجهًا فكريا حقيقيًا ولا رؤية واضحة وإنما كما ذكر الكاتب هي أشبه بالأيديولوجيا، لذلك سرعان ما تهتز أركانه عند مواجهته لسلطة النص وهجمات الخطاب الإحيائي أو من خلال التيار المناهض للأصولية، وكذلك الهجمات المتكررة من السلطة السياسية والتي لطالما حاولت محاربته لوجود عدد من القضايا الشائكة بينهما.

إنّ الصحوة الإسلاميّة باختلاف توجهاتها تحولت من بناء حصون للدفاع والممانعة ضد هجمات الحداثة الغربية إلى، فما عاد الخطاب يعيش مرحلة اليقظة والانبهار بالغرب ولا عاد يكترث للغرب أساسا بل أصبح يخلق لنفسه أيديولوجيا تحزبية لا ترتكز لقاعدة فكرية، وإنّما مجموعة أفكار تعتز بالماضي وتحتقر الحاضر، وما عاد الخطاب يحاول استمداد وقود للنهوض، بل يعتز بما يملكه من التفاخر واتهام الغرب ومدنيته بأسواء الاوصاف ليهاجم الغرب، وأصبح لعنة ينشر سمومه في الغرب وهو منحنى خطير جدًا، وما أفغانستان وغزوة البرجين والآن دولة الإسلام في العراق والشام إلا ترجمة لهذه الأيديولوجيا التي تعيش في كنف ثنائية دولة الإسلام والحرب.

يرى الكاتب أن التحولات في الخطاب الأصولي ليست تغيرات مفاجئة وطارئة، بل إن جذوره متكونة منذ البداية فالمشكل في الخطاب نفسه وما الفرع إلا جزء من الأصل، فالخطاب التكفيري والسلفي والإقصائي والجهادي كلها نبتت من تربة خطاب احترف الأنا واتسم بالعشوائية ولم يتسم بأي وضوح وعمق فكري على عكس الخطاب الغربي الواضح والمنهج، لذا يرى الكاتب أنه لا مجال لأن نلتمس العذر لهذا الخطاب الأصولي، والذي لطالما كان متخاذلا ومترددا ومتكاسلا عن نقد الأصالة، لذلك أصبح من السهل تمجيد الماضي وتحويله لصنم مقدس يستحيل نقده أو حتى التعريض له بأي وجه من وجوه إبداء الرأي، حتى أصبحت الأمة تسير بأيدلوجيا مقلوبة وثنائيات معكوسة وكأنها تسابق قطار الزمن باتجاه مضاد، والعجب أنها تظن نفسها بأنها في الأمام أو أنها تنتظر فتحا إلهيا يقلب لصالحها آلة الزمن وهذا هو الخسران المبين.

رغم أن الكاتب فصل بين الخطاب النهضوي والخطاب الإحيائي بطريقة تتسم بالإنصاف، إلا أنّه كان على الكاتب أن يركز على الجوانب المشتركة بين الخطابين والتي أشار لعدد منها ولكن لم يسلط الضوء طويلا، فسرعان ما حمل الخطابين في نفس المحمل وهو الخطاب الأصولي، إن نقد الكاتب للخطاب الأصولي وغياب صورة واضحة للخطاب وماهيته هو أمر مهم فمن الصعب أن ننقد خطابا يتسم بالتماهي والعشوائية ويفتقر لأي قاعدة واضحة فمعنى الأصالة يحمل من السفسطائية الشيء الكثير، فهي أيديولوجيا تعاني من الأنا المجروحة، لذا من المهم أن ننقد الموروث لنرتقي إلى سلم الحضارة لا أن نقدسه.

m056058@gmail.com